

معوقات في مواجهة النظرية الإسلامية

الحلقة الثامنة

د/ علي يوسف اليقوبي

الوجودية

لقد ظهر هذا المذهب المنحرف، كسائر المذاهب الغربية، وَكَتَيْجَةِ طَبِيعِيَّةٍ لِمَا أَصَابَ الْحَيَاةَ الْغَرْبِيَّةَ مِنْ جَفَافٍ وَاضْطِرَابٍ، فِي أَعْقَابِ الْحَرَبَيْنِ الْعَالَمِيَّتَيْنِ؛ الْأُولَى، وَالثَّانِيَّةِ، وَمَا خَلَفَتْهُمَا مِنْ انْهِيَارٍ فِي الْقِيَمِ، وَالْأَخْلَاقِ، وَانْتِهَاكِ لِحُقُوقِ الْإِنْسَانِ، مِمَّا جَعَلَ الْفَرْدَ الْغَرْبِيَّ يَتَشَكَّكُ فِي الْمَنْظُومَةِ الْخُلُقِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَيَكْفُرُ بِالْأَدْيَانِ، وَالْمَثَلِ الْعُلْيَا^(١)، وَيَشْعُرُ بِأَنَّهُ يَعِيشُ دَاخِلَ مَنْطَقَةِ انْعِدَامِ التَّوَازُنِ الْفِكْرِيِّ، وَفِي (حَيْزِ الْفَرَاغِ)، يَتَجَادَّبُهُ الْقَلَقُ وَالْيَأْسُ وَالضِّيَاعُ... حَيْثُ بَدَأَتْ رِحْلَةُ الْأَلَامِ، وَالْمُعَانَاةِ، وَالْبَحْثِ عَمَّا يَجْلِبُ السَّكِينَةَ، وَالْأَمَانَ، وَالْاطْمَئِنَّانَ...، فَرَاغَ الْعَقْلِ الْمَحْدُودِ، يَبْحَثُ وَيَبْتَكِرُ وَيُفَكِّرُ فِي الْإِلَهِ الْمَحْدُودِ، رَاحَ يَبْحَثُ فِي أُمُورٍ تَشْرِيْعِيَّةٍ لَا قِبَلَ لَهُ بِهَا، بَلْ وَلَيْسَتْ مِنْ اخْتِصَاصِهِ بِدَايَةٍ وَنَهَايَةٍ، وَتَحْتَ تَأْثِيرِ هَذِهِ الضُّغُوطِ النَّفْسِيَّةِ، ظَهَرَتْ فَلَاسَفَاتٌ وَأَدْبِيَّاتٌ وَنَظَرِيَّاتٌ، هِيَ مِنْ صُنْعِ الْبَشَرِ، تُحَاوِلُ أَنْ تُشْعِرَ الْفَرْدَ التَّائِهَ الضَّئِيلَ، بِقِيَمَتِهِ وَكِيَانِهِ، فَابْتَكَرَ قَوْمٌ مِنَ الْمَلَاحِدَةِ هَذَا الْمَذْهَبَ الْفَلَسَفِيِّ الْهَدَامَ^(٢).

❖ الملامح العامة للوجودية:

فِي الْبِدَايَةِ، لَا بُدَّ مِنَ التَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ الْوُجُودِيَّةَ قَدْ افْتَرَقَتْ عَلَى قِسْمَيْنِ اثْنَيْنِ، وَلِكُلِّ مِنْهُمَا مَلَاحِظَةُ الْخَاصَّةُ، وَهُمَا:

١- وُجُودِيَّةٌ نَصْرَانِيَّةٌ: وَقَدْ ظَهَرَتْ عَلَى يَدِ (جَبْرِيلِ مَارْسِيلِ) الْفَرَنْسِيِّ الْمَعْرُوفِ، (وَكَيْرِ كَجَارْدِ)، وَهُوَ لَاهُوتِيٌّ دَانِمَرْكِيٌّ، يَعُدُّهُ الْبَعْضُ وَاضِعَ أُسُسِ الْوُجُودِيَّةِ الْمَسِيحِيَّةِ، فِي الْقَرْنِ الثَّاسِعِ عَشَرَ^(٣) وَالتِّي مِنْ أَهَمِّ مَلَاحِظِهَا، أَنَّهَا لَا تُتَكَرَّرُ وُجُودَ اللَّهِ، وَلَكِنَّهَا تَقُومُ عَلَى تَصَوُّرَاتٍ مَسِيحِيَّةٍ خَاطِئَةٍ، وَعَلَى بَعْضِ آرَاءِ (مَارْتِنِ ثُوْتِر) الْمُتَمَرِّدِ عَلَى الْكَاثُولِيكِيَّةِ^(٤)، حَيْثُ تَعْتَمِدُ فِي جَوْهَرِهَا عَلَى فِكْرَةِ الْخَطِيئَةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَالْإِنْسَانِ الْخَاطِئِ، الَّذِي وَرِثَ هَذِهِ الْخَطِيئَةَ عَنْ أَبِيهِ آدَمَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، مِمَّا يَدْفَعُهُ إِلَى تَحْقِيقِ ذَاتِهِ، بِالْعَمَلِ النَّابِعِ مِنْ إِرَادَتِهِ الْحُرَّةِ، وَهُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى خَلْقَ أَفْعَالِهِ، وَتَحْدِيدَ صِفَاتِهِ وَمَاهِيَّتِهِ، دُونَ آيَةِ قُوَّةٍ خَارِجِيَّةٍ ذَاتِ سُلْطَانٍ مُؤَثِّرٍ^(٥).

(١) ينظر/ د. وليد قصاب - المذاهب الأدبية الغربية رؤية فكرية، وفنية - ص ١٣٥.

(٢) ينظر/ د. عدنان علي رضا النحوي - الأدب الإسلامي.. إنسانيته وعالميته - ص ٢٥٢.

وينظر أيضاً/ د. عز الدين إسماعيل - الأدب وفنونه - ط ٨، ص ٤٩.

(٣) ينظر/ السابق نفسه: ص ٤٨.

(٤) ينظر/ السابق نفسه: هامش ص ٤٨.

(٥) د/ عبد الباسط بدر- مذاهب الأدب الغربي "رؤية إسلامية"- ص ٨٨- ٨٩ "بتصرف".

٢- **وُجُودِيَّةٌ مُلْحَدَةٌ:** ومن أبرز وجوهها: الفيلسوف والأديب (جان بول سارتر) الذي وُلِدَ عام ١٩٠٥م، والذي يُعَدُّ رَأْسَ الْوُجُودِيِّينَ الْمُلْحِدِينَ. وَمِنْ أَهَمِّ مَلَامِحِهَا:

أ- أَنَّهَا مَذْهَبٌ فَلَسَفِيٌّ أَدَبِيٌّ مُلْحَدٌ، وَتَعُودُ فِي أَصُولِهَا إِلَى الْفِيلَسُوفِ الْأَلْمَانِيِّ (نيتشة)، وَهِيَ تَقُومُ فِي نَشْأَتِهَا عَلَى فَلَسَفَةِ (شوبنهاور)، الَّتِي تَجْعَلُ مِنَ الْإِرَادَةِ قَوَامَ الْعَالَمِ، وَانْتَهَتْ بِصَاحِبِهَا أَوْ انْتَهَى بِهَا، إِلَى تَشَاوُظٍ مِيتَافِيزِيْقِيٍّ عَمِيقٍ^(٦)، وَهَذَا الْمَذْهَبُ الْمُلْحَدُ هُوَ أَشْهُرُ مَذْهَبٍ اسْتَقَرَّ فِي الْأَدَابِ الْغَرِبِيَّةِ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ، وَيُرَكِّزُ عَلَى الْوُجُودِ الْإِنْسَانِيِّ الدِّيْكَارْتِيَّ، الَّذِي نَادَى بِهِ (ديكارت) "أَنَا أَفَكِّر.. فَإِذَا أَنَا مُوجُودٌ" وَالَّذِي يُعْتَبَرُ الْحَقِيقَةَ الْيَقِينِيَّةَ الْوَحِيدَةَ فِي رَأْيِهِ، وَلَا يُوجَدُ سَابِقٌ عَلَيْهَا، وَلَا بَعْدَهَا^(٧).

ب- التَّجَرُّدُ مِنَ الْقِيَمِ وَالْأَخْلَاقِ: وَتَصِفُ الْوُجُودِيَّةُ الْإِنْسَانَ، بِأَنَّهُ صَانِعُ نَفْسِهِ وَكَيَانِهِ بِإِرَادَتِهِ، وَهُوَ الَّذِي يَخْلُقُ أَفْعَالَهُ، وَيَحْدُدُ صِفَاتِهِ بِإِرَادَتِهِ الْمُطْلَقَةَ، وَاخْتِيَارِهِ الْحُرَّ، دُونَ الْحَاجَةِ إِلَى قِيَمٍ أَوْ أَخْلَاقٍ أَوْ مُثُلٍ، مِنْ خَارِجِ إِرَادَتِهِ، بَلْ إِنَّ هَذِهِ الْقِيَمَ وَالتَّقَالِيدَ، مَا هِيَ إِلَّا مَوْرُوثَاتٌ بَالِيَّةٌ، يَجِبُ التَّخَلُّصُ مِنْهَا، لِيَعِيشَ الْفَرْدُ حُرًّا مُطْلَقًا، بِلاَ أَيْ نَوْعٍ مِنَ الْقِيُودِ. وَالْمَحْصَلَةُ النَّهَايَةُ، أَنَّهُمْ يَحْصُرُونَ أَنْفُسَهُمْ وَقَضَايَاهُمْ وَفَلَسَفَتَهُمْ بَيْنَ هِلَالِي (الوجود والعدم) أَوْ بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ، وَلَا شَيْءَ غَيْرَ ذَلِكَ^(٨).

ج- التَّنَكُّرُ لِلْإِلَهِ: وَنَتِيجَةٌ لِمَا سَبَقَ.. فَإِنَّ الْوُجُودِيِّينَ لَا يَرَوْنَ وُجُودَ أَيْ شَيْءٍ "خَارِجَ هَذَا التَّفَكِيرِ وَلَا سَابِقًا عَلَيْهِ، وَبِالتَّالِي لَا يُوجَدُ إِلَهٌ، وَلَا مُثُلٌ، وَلَا قِيَمٌ أَخْلَاقِيَّةٌ مُتَوَارِثَةٌ لَهَا صِفَةُ الْاحْتِرَامِ وَالتَّقْدِيرِ، وَكُلُّ هَذَا ثَرَاثٌ عَتِيقٌ، أَخَذَ النَّاسُ يَتَحَلَّلُونَ مِنْهُ، فَهِيَ (الوُجُودِيَّةُ) تَرْمِي إِلَى تَحْرِيرِ الْإِنْسَانِ، وَجَعَلِهِ سَيِّدَ نَفْسِهِ، وَمُحَقِّقَ وُجُودِهِ، وَتَقْتَصِرُ حَقِيقَتُهُ عَلَى وُجُودِهِ الْفَعْلِيِّ، وَعَلَى مَجْمُوعِ مَا يَأْتِيهِ مِنْ أَفْعَالٍ"^(٩).

د- وَقَدْ نَادَى "سارتر" بِأَنَّ الْوُجُودِيَّةَ تَقُومُ عَلَى ثَلَاثِ دَعَامَاتٍ رَئِيسَةٍ، وَهِيَ: (الْحُرِّيَّةُ □ الْمَسْئُوبِيَّةُ □ الْإِلْتِزَامُ).

وَفِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْحُرِّيَّةِ، فَإِنَّهَا تَعْنِي عِنْدَ الْوُجُودِيِّ الْجَانِبَ السَّلْبِيَّ مِنْهَا، حَيْثُ التَّفَلُّتُ مِنْ أَيْ قَيْدٍ، وَمِنْ أَيْ نَوْعٍ، فَيَقْبَلُ مِنْ خِلَالِهَا مَا يَشَاءُ، وَيَرْفُضُ مَا يَشَاءُ، مِمَّا يُعْطِيهِ مَسَاحَةٌ كَبِيرَةٌ لِرَفْضِ كُلِّ الْقِيَمِ وَالْأَخْلَاقِ، وَالْعَقَائِدِ، الشَّيْءَ الَّذِي يُفْضِي إِلَى الْفَوْضَى، وَالتَّسْيُّبِ، وَأَمَّا الْمَسْئُوبِيَّةُ فَتَبْدُو مُضْطَرَبَةً، مُتَنَاقِضَةً، غَيْرَ وَاضِحَةٍ، فَالْإِنْسَانُ مُسْتَوْثَلٌ عَنْ تَنْظِيمِ حَيَاتِهِ، وَعَلَاقَاتِهِ عَلَى أَسَاسٍ مِنَ التَّفَلُّتِ الَّذِي يَعِيشُهُ، وَأَمَّا الْإِلْتِزَامُ فَلَا يَتَجَاوَزُ أَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ وَالِدَّعْوَةُ لِهَذِهِ الْمَبَادِي^(١٠) لَيْسَ أَكْثَرَ. وَقَدْ نَتَجَ عَنْ ذَلِكَ مُشْكَلاتٌ ثَلَاثَةٌ، وَهِيَ:

(٦) د/الطاهر أحمد مكي- الشعر العربي المعاصر- روايته ومدخل لقراءته ، ص٦٢.

(٧) ينظر/ د. عبد الرحمن رأفت الباشا - نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد - ص٧٥.

(٨) د/ مانع الجهني - الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة - ج٢، ص، ٨٩٨ (بتصرف).

(٩) د/الطاهر أحمد مكي- الشعر العربي المعاصر- ص٦٥.

(١٠) ينظر/ د. عدنان علي رضا النحوي - الأدب الإسلامي إنسانيته، وعالميته - ص٢٨٣.

- **القلق:** وفي غيبة الإيمان، وفقدان الثقة، واليقين.. بدأ الإنسان أعزل منبؤداً، لا يعرف الراحة، أو الأمان.. ومضى الفكر الوجودي ينضح بمعاني "التمرُّق، والقلق، واليأس، والعبث، والقرف، والتزق، والغربة، والظلام، والتشكُّر للقيم، والأخلاق، والفضائل، والعيش في دوامة الحيرة، والعجز، والتناقض، والانسحاق.. وما إلى ذلك من المعاني التي يزخر بها أدب الوجوديين..^(١١) وما ذاك إلا محصلة طبيعية للأفكار المريضة، التي لا تكاد تستقر على رأي حتى تنتقل إلى غيره، في حركة سالبة دائمة، حيث يحاول هذا الإنسان التأثُّه، فسّر نفسه على غير طبيعتها، وغير سجيَّتها، فهو قلق، ومتناقض، وغير مستقر.

- **الهجران:** ولعلَّ ما عاناه الوجودي من قلق، جعله يشعر بالوحدة، وجفاف الحياة، فلا معين يلجأ إليه أو يعتمد عليه من خارج نفسه.

- **اليأس:** وكنتيجة طبيعية لما يكابده الوجودي من قلق، وهجران، فقد ظهر اليأس في حياته، فهو يعيش بلا هدف، ولا غاية، وقد أدرك "سارتر" ما يعانيه أصحابه من يأس، فعالج ذلك بأن جعل للوجود هدفاً، هو العمل، فالعمل هدف في ذاته، وليس وسيلة، فحسب الوجودي أنه يعيش ليعمل، وأن يلقي جزاءه في العمل، لا فيما يناله من ثمراته^(١٢)، ولكن "سارتر" غفل عن تلك المرحلة العمرية التي يصل فيها الإنسان إلى القعود، وعدم القدرة على العمل.

هـ - الإباحية: هذا ويتناضل أنصار هذا المذهب الملحد الهدام، كي يفجموه في أدبنا، مهما كلف ذلك من تضحيات، مستخدمين أبشع الوسائل وأقذرها، في سبيل استقطاب فئة معينة من الشباب، الذي لا يردعه وأنع من دين أو خلق أو فضيلة، فمن آرائهم الهدامة الفوضوية، التي يستجلبون بها الشباب؛ الإباحة المطلقة للعلاقة المفتوحة بين الجنسين، ذلك أنهم يرون أن الرجل والمرأة، ما هما إلا نوع من أنواع الحيوان، ويجب أن يتمتع كل منهما بالآخر، كما يتمتع الحيوان^(١٣)، ولنا أن نتصور ما ستؤول إليه حال البشرية، في هذا العالم (الحظيرة) من تردٍ وانحلال وفساد... وتشردٍ وجريمة، وما سيترتب على ذلك من تدهور، وانحطاط أخلاقي، بل فناء حضاري أكيد.

و- ليس للأدب الوجودي آراء خاصة تتعلق بشكل العمل الأدبي؛ (قصةً كان أم مسرحيةً أم قصيدةً)، لأنَّ جلَّ اهتمام الوجودي، منصبُّ على المضمون، الذي يخدم الفكرة والمعتقد (الالتزام)، وقد استثنى (سارتر وهيدجر وألبير كامو) الشعر من هذا الالتزام، بينما رأوا أنَّ القصة والمسرحية، أقدر على تجسيد المذهب الوجودي الأدبي. وقد استطاع الوجوديون أن يبدعوا في هذا المجال، قصصاً ومسرحيات، مشحونة بأفكارهم ومعتقداتهم^(١٤).

(١١) د/ أحمد أبو حقة - الالتزام في الشعر العربي - ط١، ١٩٧٩م، دار العلم للملايين - بيروت - ص٢٢٩، ٣٣٠.

(١٢) ينظر/ د. عبد الرحمن رأفت الباشا - نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد - ص٧٦، ٧٧.

(١٣) أحمد فرح عقيلان - جنابة الشعر الحر - ط١ - ص ٧٣ - ٧٤ (بتصرف).

(١٤) د/ عبد الباسط بدر - مذاهب الأدب الغربي رؤية إسلامية - ص٩٢ (بتصرف).

❖ قِرَاءَةُ فِي الْوُجُودِيَّةِ:

تُعتبرُ الوجوديةُ من أخطرِ المذاهبِ، بل هي أخطرُها على الإطلاقِ، وأشدُّها عداوةً للأديانِ، والقيمِ، والمبادئِ، والأخلاقِ، وسوفَ تُلقِي الضَّوءَ على أهمِّ المبادئِ، والأسسِ التي حاربتِ من خلالها الأديانَ، وموقفِ الدينِ الإسلاميِّ منها، ومن ذلك:

أولاً: لقد ذمَّ المولى (ﷺ)، كلَّ مَنْ خالفَ قوله فعله، ﴿كَبُرَ مَقْتًا أَنْ تُقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، لما يترتبُ على ذلك التَّصرفِ المشينِ من نتائجَ خطيرةٍ، وعلى هذا فإنَّنا نرى زعيمَ الوجوديةِ، و(فيلسوفها) سارتر، الذي قدَّسَ الحرِّيَّةَ، والمسئوليَّةَ، "لم يستطع أن يتحمَّلَ مسئوليَّةَ زوجةٍ، أو أسرةٍ، أو طفلٍ، هذا ولو اتَّخذناه مثلاً في حياتنا لتَحطَّمتِ روابطنا الأسريَّةُ، ودُمِّرتنا الأنانيَّةُ، وانبرى كلُّ فردٍ ليعنُ الحياةَ، وما فيها، ويسخرُ من المبادئِ، وروعيتها، ولهذا فإنَّ فلاسفةَ التَّاريخِ على شاكلةِ "سارتر"، لم يستطع أحدٌ منهم أن يُغيِّرَ مجرى الحياةَ، أو يُعدِّلَ من مسارها" (١٥)، وعلى هذا يتبيَّنُ مدى الشَّرْحِ الذي سيُحدِّثه مثلُ هذا (القُدوة) في المجتمعاتِ الإسلاميَّةِ، من انحلالٍ، وتفسُّخٍ، وانهيارٍ للمَنظومةِ الأسريَّةِ، وتحوُّلِ المُجتمعِ إلى غابةٍ حيوانيَّةٍ، شهوانيَّةٍ، مُدمِّرةٍ لكلِّ القيمِ، والأخلاقِ، والمبادئِ، والمثلِ التي جاء بها الإسلامُ بشكلٍ خاصٍّ، والأديانُ السَّمَاوِيَّةُ بشكلٍ عامٍّ، فكيفَ يدَّعي رجلٌ "أنَّهُ يُريدُ إسعادَ الإنسانِ، وهو في الوقتِ نفسِه، يَمَلَأُ وجدَّاهُ بالحسرةِ، والتَّمَرُّقِ، والسُّخْطِ على كلِّ شيءٍ" (١٦).

ثانياً: لعلَّ من أهمِّ ما يجبُ أن نُشيرَ إليه في هذا المقامِ، هو النَّهجُ الإلحاديُّ الذي انتهجته الوجوديةُ، فالإسلامُ يرفضُ الوجوديةَ بجميعِ أشكالها، ويرى فيها تجسيدا للانحرافِ، والكُفْرِ سواءً الوجوديةُ النَّصرانيَّةُ، أم الوجوديةُ المُلحِدةُ.

ثالثاً: لقد اعتمدت الوجوديةُ النَّصرانيَّةُ في جوهرها على عقيدة (الإنسانِ الخاطيءِ) الذي ورثَ الخطيئةَ عن أبيه (آدمَ) (ﷺ)، والإسلامُ يرفضُ إفرازاتِ ذلك التَّصوُّرِ الوجوديِّ النَّصرانيِّ المنحرفِ، لأنَّه يتناقضُ مع أبسطِ قواعِدِ الفكرِ الإسلاميِّ (١٧)، سواءً من حيثِ الجوهَرِ والمُضمونِ، وما يتعلَّقُ بتوبةِ آدمَ (ﷺ)، أو من حيثِ ما يتفرَّعُ عنها من أحكامٍ، لا تتفقُ والفكرِ والمنطِقِ السَّليمِ، يقولُ (ﷺ): ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (١٨)، كما أنَّ هذا التَّصوُّرَ -أيضاً- يُخالفُ صريحَ القرآنِ الكريمِ، الذي يثبتُ توبةَ (آدمَ) (ﷺ)، يقولُ (ﷺ): ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى، ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ (١٩).

(١٥) د/نجيب الكيلاني - آفاق الأدب الإسلامي - ط١، ص١٣٨.

(١٦) السابق نفسه: ص١٣٩.

(١٧) ينظر/ د. وليد قصاب - المذاهب الأدبية الغربية رؤية فكرية، وفنية - ص١٤٤.

(١٨) سورة فاطر: الآية ١٨.

(١٩) سورة طه: الآية ١٢١.

رابعاً: إنَّ شعارات الحرية والالتزام والمسؤولية، التي تدعو إليها الوجودية، تعتمد في الأساس على التفلسف، والتمرُّد على كلِّ المعتقدات الدينية، والقيم الخلقية، وذلك انطلاقاً من إنكار الإله الواحد، ممَّا يُفضي إلى الفساد، وانتشار الفوضى، والجريمة، والأمراض النفسية، بسبب عدم وجود تصوُّر واضح للأخرة، والبعث، والجزاء، والحساب: ﴿إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾^(٢٠)، وهي كذلك تتعارض مع أصل عظيم من أصول الإسلام، والمتمثل في الوظيفة الأساس للخلق، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢١).

خامساً: كما اعتبرت أنَّ الوجود اليقيني للإنسان محصور بين لحظة الولادة، إلى أن يضمُّه القبر فقط، وكذا فعليه أن يعُبَّ من لذات الحياة عباً، وأنَّ يُقبل عليها أيَّما إقبال، بينما يعتبر المسلم الحياة الدنيا قنطرة للأخرة، وأنها دار عمل، واختبار، وأنَّ ما بعدها أهمُّ منها، إمَّا إلى جنة، أو إلى نار^(٢٢).

ولقد رفعت الوجودية من شأن الإنسان والعقل، "فأطلقت العنان لرغباته، وأفسحت المجال أمام شهواته، ولكي يحقق الإنسان وجوده بشكل حرٍّ، فعليه أن يتخلَّص من كلِّ الموروثات العقديَّة والخلقية"^(٢٣)، والدينية، وفي هذا تعارض مع كلِّ الأديان السماوية، ومع الإسلام على وجه الخصوص، ذلك أنَّ جميع هذه الأديان تحضُّ الإنسان على السيطرة على رغباته، وشهواته، وأطماعه... فهي لم تغلق باباً من أبواب المحرمات، إلا فتحت باباً من أبواب المباحات؛ فإن حرمت الرِّبَا، فقد أباحت البيع، والشراء..^(٢٤)، وإن حرمت الزِّنا، فقد شرعت الزواج.. وهكذا في كلِّ شؤون الحياة، في حين لم تُقدِّم الوجودية نظام حياة بديلاً، بل تركت الإنسان (حرراً)، يختار ما يشاء، ويتحمل مسؤولية اختياره، وتركته يخوض غمار هذا التَّيه المظلم، من الآثام، والشَّهوات.

سادساً: كما تحدّث الوجودية (الوجودية - المسيحية) عن مسألة الوجود والماهية، فعبروا عن ذلك "بأنَّ الإنسان يُوجد أولاً، ومن مشروعه الحرِّ الذي يكون عليه وجوده...، يستطيع أن يختار ماهيته.."^(٢٥)، ولا شك أنَّ هذا تصوُّر واضح البطلان شرعاً وعقلاً...، لأنَّه لا يُتخيَّل أن يصنع أحد شيئاً دون أن يُحدِّد أولاً وظيفته، وإنَّ الإنسان الذي خلقه الله وصوره فأحسن صورته خلقه ليؤدي وظيفة معينة في هذا الكون، لم يخلقه عبثاً، ولذلك منحه من الماهية والقدرة والتكوين ما يمكنه من أداء رسالته"^(٢٦)، وهذا قمة العدل والإنصاف الإلهي.

(٢٠) سورة المؤمنون: الآية ٣٧.

(٢١) سورة الزاريات: الآية ٥٦.

(٢٢) ينظر/ د. عبد الرحمن رأفت الباشا - نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد - ص ٨١.

(٢٣) د/ مانع الجهني - الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة - ج ٢، ص ٨٩٨.

(٢٤) ينظر/ د. عبد الرحمن رأفت الباشا - نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد - ص ٧٩، ٨٠.

(٢٥) جلال العشري - صرخات في وجه العصر - ص ٢٨٨.

(٢٦) د/ وليد قصاب - المذاهب الأدبية الغربية رؤية فكرية، وفنية - ص ١٤٥.

وَفِي حِمَاةِ هَذِهِ الْأَجْوَاءِ الْمَوْبُوءَةِ، شَقَّتْ هَذِهِ النَّغَمَاتُ الْمَرِيضَةُ طَرِيقَهَا إِلَى شِعْرِنَا الْعَرَبِيِّ..،
يَقُولُ نِزَارُ قَبَّانِي عَنْ حَرَكَةِ الشَّعْرِ الْحُرِّ الَّتِي أَلْقَحَهَا الْفِكْرُ الْعَرَبِيُّ، وَالْفَلَسَفَاتُ الْمَادِّيَّةُ: "فَالِاتِّزَامُ
ابْنِ الْمَارْكُوسِيَّةِ الْمَدْلُّ، الَّذِي مَرَّ بِرُؤُوسِنَا فِي أَوَائِلِ الْخَمْسِينَاتِ، مُرُورَ الدُّوَارِ الْمُبَاغِتِ، وَالْوُجُودِيَّةُ
دَقَّتْ أَبْوَابَنَا بِغُنْظٍ، وَاسْتَطَاعَ سَارْتَرُ، وَكَامِي، وَكَافْكََا، وَكُولِن، وَيَلْسِنُ أَنْ يَنْقَلُوا إِلَيْنَا عَوَارِضَ
الْعُثْيَانِ وَالسَّرَطَانِ" (٢٧)، وَهَكَذَا "لَمْ يَقِفِ الْأَمْرُ لَدَى بَعْضِ الْأُدْبَاءِ، وَالْمُفَكِّرِينَ الْعَرَبِ عِنْدَ حَدِّ
التَّأَثُّرِ الْعَارِضِ بِهَذَا السَّرَطَانِ الْفِكْرِيِّ الْمُدْمِرِ، بَلْ اتَّخَذَهُ بَعْضُهُمْ عَقِيدَةً، وَرَاحَ يَدْعُو الشُّعْرَاءَ إِلَى
اعْتِنَاقِهَا...، فَفِي الْوَقْتِ الَّذِي حَرَّرَ فِيهِ "سَارْتَرُ" الشَّعْرَ مِنَ الْإِتِّزَامِ، وَقَصَرَهُ عَلَى النَّثْرِ، وَجَدَ مِنْ بَنِي
جِلْدَتِنَا مَنْ هُوَ أَكْثَرُ حُنُوًّا عَلَى هَذَا الْمَذْهَبِ، مِنْ أَهْلِهِ" (٢٨)، فَارَاحَ يَدْعُو إِلَى رَبِطِ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ
الْمُعَاصِرِ، بِالْفِكْرِ الْوُجُودِيِّ..، وَيَزْعُمُ أَنَّ فِي الْفِكْرِ الصُّوفِيِّ الْإِسْلَامِيِّ مَلَامِحَ مِنَ الْفِكْرِ
الْوُجُودِيِّ، وَرَاحَ يَدْعُو إِلَى وُجُودِيَّةٍ عَرَبِيَّةٍ (٢٩)، وَعَلَى هَذَا رَاحَ الدُّكْتُورُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بَدْوِي يَهَيِّمُ
بِرُمُوزِ الْوُجُودِيَّةِ، وَبِفِكَرِهِمُ الْمَرِيضِ، حَيْثُ كَانَ "فولتير" مَثَلَهُ الْأَعْلَى، وَخُصُوصًا مِنْ خِلَالِ
قَصَائِدِ دِيوانِهِ "أَزْهَارُ الشَّرِّ" لِأَنَّهَا تُمَثِّلُ الشَّعْرَ الْوُجُودِيَّ خَيْرَ تَمَثِيلٍ، يَقُولُ الدُّكْتُورُ بَدْوِي: "وَلِهَذَا
نَسْتَطِيعُ أَنْ نَعُدَّ "أَزْهَارَ الشَّرِّ" أَكْمَلَ نَمُودَجٍ لِلشَّعْرِ الْوُجُودِيِّ.. " (٣٠)، كَمَا بَدَتْ هَذِهِ الْأَفْكَارُ
الْوُجُودِيَّةُ لَدَى كَثِيرٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ مِنْ أَمْثَالِ: "أَدُونِيسَ، خَلِيلِ الْحَاوِي، الْبَيَّاتِي، صَلَاحِ عَبْدِ الصَّبَّورِ،
حِجَازِي، كَمَالِ أَيُّوبَ، بَدْرِ الدِّيْبِ...، كَالْتَّمَرْدُ عَلَى الْكَوْنِ، وَالْوُجُودِ، وَالْأُلُوْهِيَّةِ، وَمَجْهُولِيَّةِ
الْهُوِيَّةِ، وَالتَّغْرُبِ فِي اللَّاوْطَنِ.. وَمَشَاعِرِ السَّامِ، وَالضِّيَاعِ، وَالتَّمَرُّقِ، وَالْخَوْفِ مِنَ الْمَجْهُولِ
الْعَامِضِ..." (٣١).

وَهَاهُوَ "أَدُونِيسُ" يُعْبَرُ عَنْ حَالَةِ الْيَأْسِ، وَالْقَلَقِ الَّذِي يُلَوِّنُ كُلَّ أَجْزَاءِ حَيَاتِهِ، فَتَرَاهُ تَارَةً يُعْبَرُ
عَنْ مَدَى يَأْسِهِ (تَصْرِيحًا)، وَتَارَةً أُخْرَى مِنْ خِلَالِ تَوْظِيْفِ إِسْقَاطَاتِ اللَّوْنِ، وَتَارَةً مِنْ خِلَالِ الْأَلْفَافِ،
وَمَا تُشْعُّ بِهِ مِنْ مَعَانٍ، وَمَا تُوحِي بِهِ مِنْ ظِلَالٍ، يَقُولُ "أَدُونِيسُ" (٣٢):

عَلَى حُدُودِ الْيَأْسِ بَيْتِي يَقُومُ
كَالزَّبْدِ الْأَصْفَرِ جُدْرَانُهُ
مُجَوَّفٌ، مَخْلُخْلٌ، كَالْغَيُومِ
بَيْتِي شَبَابِيكَ عَجِينِيَّةَ
بَيْتِي أَحَافِيرُ
تَنْكَشُهُ الرِّيحُ فَإِنْ أَرَهَقَتْ

(٢٧) نزار قباني - الشعر فتدليل أخضر - ط ١، ص ٤٩.

(٢٨) د/ وليد قصاب - الحداثة في الشعر العربي المعاصر.. - ص ٦٣.

(٢٩) د/ عبد الرحمن بدوي - الإنسانية والوجودية في الفكر العربي - ص ٩٥، ٩٦.

(٣٠) السابق نفسه: ص ١٢٢، ١٢٣.

(٣١) د/ وليد قصاب - الحداثة في الشعر العربي المعاصر.. - ص ٦٧.

(٣٢) اسمه الحقيقي: علي أحمد سعيد إسبر، و (أدونيس) هو لقب اتخذه منذ ١٩٤٨م، ولد عام ١٩٣٠ لأسرة فلاحية في قرية (قصابين) من محافظة اللاذقية.

تَنكِشُهُ عَنَّا الْأَعَاصِيرُ^(٣٣)

أَمَّا عَنِ إِيْلِيَا أَبُو مَاضِي فَتَجَرَّبَتْهُ مَعَ الرَّفْضِ عَمِيقَةً، فَالْشَّكُّ، وَالتَّمَرُّدُ، صَارَا جُزْءًا مِنْ فِكْرِهِ الشَّارِدِ، النَّائِي، الَّذِي لَمْ يَقْرَ لَهُ قَرَارٌ، وَهُوَ تَمَثِيلٌ حَقِيقِيٌّ لِلْوُجُودِيِّ الْقَلِقِ، حَيْثُ يُخْطِئُ الَّذِينَ يُحَاوِلُونَ أَنْ يَضْعُوا إِيْلِيَا فِي مَوْقِعٍ غَيْرِ مَوْقِعِ الشَّكِّ، وَالشَّكُّ الْمَتَمَرِّدُ الرَّافِضُ، يَصِفُهُ الدُّكْتُورُ طَه حُسَيْنٌ فِيَقُولُ: "ثُمَّ هُوَ فَوْقَ هَذَا كُلِّهِ، وَقَبْلَ هَذَا كُلِّهِ، صَاحِبُ شَكٍّ، لَا يُؤْمِنُ بِشَيْءٍ، وَلَا يَطْمَئِنُّ إِلَى شَيْءٍ، بَقِيَّةٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْقَدَمَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يُجِيبُونَ عَنْ كُلِّ سُؤَالٍ بِهَذَا الْجَوَابِ الْمُنَوَاضِعِ الْبَدِيعِ: لَا أَدْرِي"^(٣٤)، وَقَدْ تَكُونُ قَصِيدَةُ إِيْلِيَا (الطَّلَاسِمُ) خُلَاصَةً فَلَسْفَتِهِ فِي هَذَا الصَّدَرِ، وَقَدْ "تَتَوَرَّعُ هَذِهِ الْفَلَسَفَةُ فِي اتِّجَاهَاتٍ: الْوُجُودِ الدَّائِيَّ وَالْمَوْضُوعِيَّ، الْمَصِيرِ الْإِنْسَانِيَّ وَالْكَوْنِيَّ، قَضَايَا الْخَيْرِ وَالشَّرِّ"^(٣٥)، فَهِيَ هُوَ يُصَوِّرُ حَيْرَتَهُ الْمُغْلَفَةَ بِالْعَمَى، وَالتَّيْهَ، وَالضَّلَالِ:

جِئْتُ لَا أَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ؟ وَلَكِنِّي أَتَيْتُ
وَلَقَدْ أَبْصَرْتُ قَدَامِي طَرِيقًا فَمَشَيْتُ
وَسَابَقِي سَائِرًا إِنْ شِئْتُ هَذَا أَمْ أَبَيْتُ
كَيْفَ جِئْتُ؟ كَيْفَ أَبْصَرْتُ طَرِيقِي؟
لَسْتُ أَدْرِي^(٣٦)

وَنَتِيجَةً لِهَذَا التَّصَوُّرِ الشَّائِيهِ عَنِ الْوُجُودِ، وَهَذَا الْغَبْشِ، وَالْعَمَى، رَاحَ يُدِيرُنْ قَضِيَّةَ الْمَوْتِ الَّتِي تَبْدُو فِي نَظَرِهِ غَيْرَ عَادِلَةٍ، فَيَقُولُ:

إِنْ يَكُ الْمَوْتُ قَصَاصًا: أَيُّ ذَنْبٍ لِلطَّهَارَةِ
وَإِذَا كَانَ ثَوَابًا: أَيُّ فَضْلٍ لِلدَّعَارَةِ
وَإِذَا كَانَ وَمَا فِيهِ جَزَاءٌ أَوْ خَسَارَةٌ
فَلِمَ الْأَسْمَاءُ إِثْمٌ وَصَلَاحُ
لَسْتُ أَدْرِي^(٣٧)

كَمَا رَاحَ يُشَكِّكُ فِي الْبَعْثِ، وَالتَّشْوِيرِ، وَيَتَسَاءَلُ عَنْ بَعْضِ الْأَحْوَالِ الَّتِي يُبْعَثُ عَلَيْهَا الْبَشَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كُلُّ ذَلِكَ مُغْلَفٌ بِحَالَةٍ نَفْسِيَّةٍ مُتَمَرِّدَةٍ، وَشَاكَّةٍ فِي كُلِّ مَا يَدُورُ فِي هَذَا الْكَوْنِ، وَمِنْ خِلَالِ نَوْعٍ مِنَ الْمُقَابَلَةِ، وَالتَّضَادِّ، فَيَقُولُ:

إِنْ أَكُنْ أُبْعَثُ بَعْدَ الْمَوْتِ جُثْمَانًا وَعَقْلًا
أَتَرَى أُبْعَثُ بَعْضًا؟ أَمْ تُرَى أُبْعَثُ كُلًّا

(٣٣) أدونيس - الآثار الكاملة - ط ١، ص ٢٤.

(٣٤) د/ طه حسين - حديث الأربعاء - ط ١١، ج ٣، ص ١٩٨.

(٣٥) د/ محمد أحمد العزب - ظواهر التمرد الفني في الشعر العربي - ص ١٠٧.

(٣٦) إيليا أبو ماضي - الجداول - (ديوان) قصيدة الطلاس، ط ٩ - ص ١٣٩.

(٣٧) السابق نفسه: ط ٩، ص ١٥٤.

أَتَرَى أُبْعَثُ طِفْلاً ؟ أَمْ تُرَى أُبْعَثُ كَهْلاً
ثُمَّ هَلْ أَعْرِفُ بَعْدَ الْمَوْتِ ذَاتِي ؟
لَسْتُ أُدْرِي ^(٣٨)

هَذَا .. وَمِنْ الْمُلَاحَظَةِ عَلَى مَجْمُوعَةٍ كَبِيرَةٍ مِنْ قَصَائِدِ إِيْلِيَا أَبُو مَاضِي سَيْطَرَةُ (الْأَلَادِرِيَّة) ^(٣٩) عَلَى كَثِيرٍ مِنْ قَصَائِدِ (الْجَدَاوِلِ)، حَيْثُ يُحَاوِلُ الشَّاعِرُ "أَنْ يَسْتَكْنِهَ سِرَّ الْمَصِيرِ الْإِنْسَانِيِّ، وَالْكَوْنِيِّ، فَيُجِيبُ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ الْفَاجِعَةِ: "لَسْتُ أُدْرِي" .. وَهَكَذَا يُشْهَرُ الشَّاعِرُ هَذِهِ (الْأَلَادِرِيَّة) فِي وَجْهِ كُلِّ الْمَغَالِيقِ الدَّائِيَّةِ، وَالْمَوْضُوعِيَّةِ، وَالْمَصِيرِيَّةِ" ^(٤٠).

كَمَا نَلْحَظُ قِمَّةَ التَّأَزُّمِ النَّفْسِيِّ عِنْدَ الشَّاعِرِ "مَحْمُودِ أَبُو الْوَفَا" فَتَرَاهُ يَرْفُضُ فِي قَصِيدَتِهِ "رِثَاءُ نَفْسِي" وَضَعِيَّةَ وَجُودِهِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ:

فِي ذِمَّةِ اللَّهِ نَفْسٌ ذَاتُ أَمَالٍ] وَفِي سَبِيلِ الْعُلَا هَذَا الدَّمُ الْغَالِي
بَدَلْتُهُ لَمْ أَذُقْ فِي الْعُمُرِ وَاحِدَةً مِنْ الْهَنَاءِ وَلَا مِنْ رَاحَةِ الْبَالِ
كَأَنِّي فِكْرَةٌ فِي غَيْرِ بَيْتِهَا بَدَتِ فَلَمْ تَلَقْ فِيهَا أَيَّ إِقْبَالِ
أَوْ أَنَّنِي جِئْتُ هَذَا الْكَوْنَ عَنْ غَلَطٍ فَضَاقَ لِي رَحْبُهُ الْمَاهُولُ وَالْخَالِي

ثُمَّ يُوسِعُ وَالِدِيهِ تَقْرِيعًا وَتَعْنِيفًا، وَعُقُوقًا، فَيَقُولُ:

أَبِي وَفِي النَّارِ مَثْوَى كُلِّ وَالِدَةٍ وَوَالِدٍ أَنْجَبَا لِلْبُؤْسِ أَمْثَالِي
مَا كَانَ ضَرْكَ لَوْ مِنْ غَيْرِ صَاحِبَةٍ قَضَيْتَ عُمُرَكَ شَأْنَ الزَّاهِدِ السَّالِي ^(٤١)

وَالنَّمَاذِجُ الْمُتَمَرِّدَةُ كَثِيرَةٌ، وَمُمْتَدَّةٌ عَلَى مَسَاحَاتٍ وَاسِعَةٍ مِنْ دَوَائِنِ الشُّعْرَاءِ، الَّذِينَ اصْطَبَغَتْ أَشْعَارُهُمْ بِالصَّبْغَةِ الْوُجُودِيَّةِ الْمُتَمَرِّدَةِ، النَّائِرَةِ، وَالَّتِي تَتَعَارَضُ مَعَ كُلِّ الْقِيَمِ الدِّينِيَّةِ، وَالْخُلُقِيَّةِ، وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ، كَمَا لَاحَظْنَا ذَلِكَ عِنْدَ إِيْلِيَا، وَأَبُو الْوَفَا، وَغَيْرُهُمَا كَثِيرٌ.

وَقَدْ أَشَارَ الدُّكْتُورُ إِحْسَانُ عَبَّاسٌ إِلَى بَعْضِ هَذِهِ الْأَفْكَارِ الْوُجُودِيَّةِ لَدَى بَعْضِ شُعْرَاءِ الْعِرَاقِ، وَمِنْهُمْ "الْبِيَّاتِي"، فَلَا حَظَّ أَنَّهُ عِنْدَمَا يُصَوِّرُ شَخْصِيَّةَ "النَّائِيَةِ الْجَوَابِ" فَإِنَّهُ يَقْتَرِبُ كَثِيرًا مِنْ الْمَفَاهِيمِ الْوُجُودِيَّةِ، فَالْإِنْسَانُ كَمَا يَرَاهُ سَارْتَر: "سَجِينًا فِي عَالَمٍ لَا يُؤَلِّيهُ اهْتِمَامًا، إِنْ لَمْ يَحْمِلْ لَهُ ضِغْنًا وَكَرَاهِيَّةً، فَإِنَّ هَذَا الْقَلْقَ، وَصِيحَةَ السَّجِينِ: أَنَا وَحِيدٌ كَقَطْرَةِ الْمَاءِ الْعَقِيمِ، وَضِيَاعِ الْمُسَافِرِ بِلَا حَقَائِبٍ، الَّذِي لَا يَجِدُ لِنَفْسِهِ تَارِيخًا وَلَا مَكَانًا، وَلَا اتِّجَاهًا، وَإِنَّ الشُّعُورَ بِالاضْطِرَابِ، وَتَفَاهَةِ الْحَيَاةِ، وَالْخَوْفِ الْمَرْضِيِّ..، وَالْحَيْرَةِ إِزَاءَ الْوُجُودِ الدَّائِي..، كُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي تُقَرِّبُ "الْبِيَّاتِي" مِنَ الْمَوْثِرَاتِ وَالْمَفْهُومَاتِ الْوُجُودِيَّةِ، وَلَا يُخْطِئُ الدَّارِسُ رُؤْيَا أَلْفَاظِ الْوُجُودِيَّةِ، وَتَعْيِيرَاتِهَا، وَصُورِهَا فِي

(٣٨) إِيْلِيَا أَبُو مَاضِي - الجداول - (ديوان) قصيدة الطلاس: ص ١٣٩، البحر: ص ١٤٢، في الدير: ص ١٤٨، بين المقابر: ص ١٥٣، القصير والكوخ: ص ١٥٨، الفكر: ص ١٦١، صراع وعراك: ص ١٦٣،

(٣٩) ينظر / السابق نفسه: ص ١٥٦، ١٥٧.

(٤٠) د / محمد أحمد العزب - ظواهر التمرد الفني في الشعر العربي - ص ١٠٩.

(٤١) محمود أبو الوفا - شعري - (ديوان)، ص ١٣٤.

شِعْرِهِ" (٤٢)، وَتَجَسَّدُ قَصِيدَةُ "مُسَافِرٌ بِلا حَقَائِبَ" هَذَا الشَّيْءَ، وَهَذِهِ الْعَذَابَاتِ، وَالسَّأَمَ، وَالْقَلَقَ، وَفُقْدَانَ الْأَمَلِ، الَّذِي يُعَانِي مِنْهُ "الْبِيَّاتِي" (٤٣):

مِنْ لَا مَكَانَ
لَا وَجْهَ لَا تَارِيخَ لِي، مِنْ لَا مَكَانَ
تَحْتَ السَّمَاءِ، وَفِي عَوِيلِ الرِّيحِ أَسْمَعُهَا تُنَادِينِي: تَعَالِ
تَحْتَ السَّمَاءِ
فِي دَاخِلِي نَفْسِي تَمُوتُ، بِلا رَجَاءِ
مُتَثَائِبٌ، ضَجْرٌ، حَزِينٌ
سَأَكُونُ لَا جَدْوَى! سَأَبْقَى دَائِمًا مِنْ لَا مَكَانَ
أَبَدًا لِأَجَلِي لَمْ يَكُنْ هَذَا النَّهَارَ
سَأَكُونُ! لَا جَدْوَى، سَأَبْقَى دَائِمًا مِنْ لَا مَكَانَ
لَا وَجْهَ لَا تَارِيخَ لِي، مِنْ لَا مَكَانَ (٤٤)

(٤٢) د / إحسان عباس - عبد الوهاب البياتي والشعر العراقي الحديث - ص ٥٠، ٥١.

(٤٣) شاعر عراقي معاصر، ولد في بغداد عام ١٩٢٦ م، تخرج بشهادة اللغة العربية وآدابها ١٩٥٠م.

(٤٤) عبد الوهاب البياتي - ديوان - ط٤، مج ١، ص ١٣٤ - ١٣٥.